# Book Reviews قراءات في كتب

## كتاب: «الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، نحو مقاربة تأصيلية وتفكيكية لظاهرة الإسلاموفوبيا». للباحث التجاني بولعوالي

## A Review of " Mutual Fear between Islam and the West: Toward a Grounded and Deconstructive Approach to Understanding Islamophobia" by Dr. Tijani Boulaouali

إعداد: **الباحثة سلوى الدحاس**[1]

**Salwa Dahass**

### مقدمة:

تعد مفردة الإسلاموفوبيا واحدة من المصطلحات الأكثر تداولا في القاموس المفاهيمي المُقارن للسياق العالمي الجديد، والأكثر ارتباطا بقضايا ومجريات العلاقات الدولية لما بعد الحرب الباردة، والظاهرة بجلاء بعد أحداث الحادي عشر من شتنبر.

إن احتدام التوتر وتنامي الشرخ الحضاري بين الإسلام والغرب الأيديولوجي، أسهم في تصاعد حدة الكراهية ضد الإسلام، وتعميق المشاعر السلبية تجاه المسلمين في المجتمعات الغربية، وتزايد الصور النمطية السلبية، حيث أضحى الإعلام الغربي




(1) باحثة في الفكر الإسلامي المعاصر.

المؤدلج يحيك صورة متوهمة حول الإسلام باعتباره خطرا يهدد المجتمعات الغربية، وبكونه دينا بربريا رجعيا، عاجزا عن مواكبة قيم العلمانية ومبادئ الحداثة.

وانطلاقا من هذه الصور الاختزالية ومما تم ترسيبه وتكريسه وإشاعته من قلق مرضي وخوف نفسي لا شعوري لدى الغرب من الإسلام وكل ما يتصل به، وبناء على الترويج المستدام لحملة مشروع التخويف منه، أصدر الباحث والمفكر المغربي الدكتور التجاني بولعوالي المتخصص في قضايا الإسلام والغرب والدراسات الإسلامية، والإطار التربوي في كلية اللاهوت والدراسات الدينية بجامعة لوفان في بلجيكا، مؤلفه الموسوم بـ: «الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، نحو مقاربة تأصيلية وتفكيكية لظاهرة الإسلاموفوبيا».

وقد تضمن هذا المؤلف مجموعة من الأفكار والتصورات التي تروم تكسير الرؤى الفكرية والإعلامية المغرضة والنمطية، التي تقدم الغرب في صورة الخائف والضحية، وهكذا نسج الباحث مقاربة مغايرة نوعا ما تهدف إلى تفكيك ظاهرة رهاب الاسلام، من خلال التنقيب في جذورها النفسية والواقعية، ثم الانتقال إلى التشكيك في مقولة: أن الخوف أحادي الاتجاه من الإسلام كما تروج أحزاب اليمين المتطرف، والحركات المناوئة لما هو إسلامي.

إن مقاربة الدكتور بولعوالي لا تكتفي بتوصيف موضوع الخوف وكشف بعض تجلياته في الواقع والإعلام والفكر، بل ترمي بالأساس إلى تصوير وتقريب صورة بانورامية شاملة للإسلام في السياق الغربي، وفي الوقت ذاته تثبيت صورة حقيقية تأسيسية للأسباب والتداعيات، فالإشكالية الأساسية التي تعالجها الدراسة وينافح عنها صاحبها باستماتة تتمثل في أن الخوف ليس أحادي الاتجاه من الإسلام فقط، كما يصرح الغرب الايديولوجي الاستعماري، بل هو خوف متبادل بين الإسلام والغرب، وكثيرا ما يكون متوهما ومزيفا لا وجود له، كما يعضد ذلك ثلة من الباحثين والمفكرين الغربيين المعاصرين.[1]

## 1. من التأصيل إلى التفكيك

إن هذا الكتاب يتعرض لواحد من أهم الموضوعات الراهنة والأكثر جدلية، والباحث عند تناوله لقضية الإسلاموفوبيا، لم يكتف بالمقاربة الوصفية، بل تخطّاها إلى توظيف مقاربة توفق بين التأصيل النظري لمسألة الخوف وما يقترن بها من مفاهيم تأسيسية أو هامشية وأنساق نفسية واجتماعية وأيديولوجية وإعلامية من جهة، والقراءة التفكيكية

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب.. نحو مقاربة تأصيلية وتفكيكية لظاهرة الإسلاموفوبيا، التجاني بولعوالي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2021، ص: 15-16.

للنصوص والآراء والنوازل من جهة أخرى، فلم يقتصر في التأصيل النظري لمصطلح الخوف على تجميع التحديدات اللغوية والضوابط المعجمية، بل عمل على تحديد معناه، وتطوره، وتجلياته، وأبعاده، ومستوياته، وقدم تعريفات لمجموعة من المفاهيم التي تمُتّ بصلة وطيدة إلى المفهوم الأصل: الخوف: فوبيا؛ الخوف من الأجانب: الاكسينوفوبيا؛ الخوف من الإسلام: الإسلاموفوبيا؛ الخوف من الغرب: الغربوفوبيا؛ الخوف المتوهم؛ الخوف المتبادل؛ والخوف السياسي.[1]

كما انتهج مقاربة تفكيكية عبر تدمير المعنى الثابت المتداول، والتنقيب في غور النص أو الحالة عن المعاني الممكنة والمتعددة، فعمل الباحث على نقد وتفكيك وتقويض السلطة الرمزية والسيكولوجية لموضوع الخوف في ثنائية الإسلام والغرب للتخلص من الرؤية التنميطية التي تصور الإسلام صانعا ومصدرا للخوف والإرهاب، والغرب في صورة الخائف والمرهوب، بإقرار رؤية بديلة ترى تارة أن الخوف ظاهرة مشتركة ومتبادلة بين الجميع، وتارة أخرى أن الخوف ليس مستبعدا أن يكون متوهما ومزيفا لا وجود له إلا في المخيال الفردي والشعبي، مستلهما في ذلك بعض مبادئ تفكيكية الفيلسوف جاك دريدا[2] Jacques Derrid الذي يرفض رفضا تاما التمركز الأوروبي، وتهميش باقي الثقافات الإنسانية الأخرى، والذي يدعو إلى التعددية التي هي بمثابة روح الحضارة،[3] فجوهر هذه الدراسة يتمحور في دحض حقيقة القول بأن المركزية الغربية وحدها التي تعاني من إرهاب الأخر وتهديده، وبتبني أطروحة مغايرة تعتبر ظاهرة الخوف متبادلة بين الجميع، وبكون النرجسية الغربية الاستعلائية محركا أساسيا في صناعة هذه الظاهرة وفي تيسير أسباب تفشيها.

## 2. المنهج المتبع في البحث

موضوع الدراسة من المواضيع الشائكة، ولقد اعتمد الباحث في تناوله لقضية الإسلاموفوبيا على توظيف مقاربات متعددة، تجمع بين البعد التأصيلي والتفكيكي والتركيبي، كما أن القالب المنهجي الذي يعتمده الباحث في معالجة كل مرحلة من مراحل

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب،ص: 17.

(2) جاك دريدا Jacques Derrida فيلسوف وناقد أدب فرنسي ولد في مدينة الأبيار بالجزائر يوم 15 يوليو 1930، وتوفي في باريس يوم 9 أكتوبر 2004.ويعد دريدا أول من استخدم مفهوم التفكيك بمعناه الجديد في الفلسفة، وأول من وظفه فلسفياً بهذا الشكل، وهو ما جعله من أهم الفلاسفة في القرن العشرين.

(3) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب ،ص19.

الظاهرة، لن يكون منعزلا بنفسه عن القوالب المنهجية للمراحل الأخرى، لأنها تشكل وحدة منهجية متكاملة ومترابطة .

ففي طور توصيف المشكلة، واستبانة بعض تجلياتها، ومظاهرها، وتحديد ماهيتها والتقعيد لجملة من المفاهيم المتاقطعة معها، ستخضع الدراسة للمنهج الوصفي التحليلي

وفي مرحلة البحث في الأسباب والتداعيات والتنقيب عن الجذور النفسية والواقعية لظاهرة الإسلاموفوبيا، سيتحول مجرى الدراسة إلى المنهج الاستقرائي التفكيكي لمعرفة العوامل المؤثرة في نشوء الظاهرة وتناميها ولرصد انعكاساتها وآثارها السلبية التي تحول دون تحقيق الاندماج الحقيقي وترسيخ المواطنة البناءة.

أما في مرحلة البحث عن البدائل الممكنة والطرائق المسعفة على تبديد الخوف من الإسلام، فستخضع الدراسة للمنهج التركيبي الاستنباطي المبني على ما سبق بحثه، من وصف واستقراء ونقد للظاهرة، فمحاولة الباحث لم تقتصر على التأصيل والفهم والتفسير، بل عمدت الى تغيير التصورات السلبية، وتكسير المسلمات النمطية عن الإسلام والمسلمين.

## 3. الخوف من الإسلام حقيقة أم وهم؟!

يعالج الباحث في القسم الأول من كتابه قضية الخوف من الإسلام بالدراسة المتعمقة لثنائية الحقيقة والوهم، موضحا نقطة في غاية الأهمية تتمثل في أن وصف خوف الغرب من الإسلام بالمتوهم لا يعني إنكاره بالمطلق، بل التشكيك في الحجم المضخم التي تقدم به هذه الظاهرة، وبأن الإرهاب لا يقتصر على طرف دون الطرف الآخر بقدر ما أنه خوف متبادل بين الأطراف كلها[1].

وقد تطرق في الفصل الأول إلى المفارقة الرمزية واللغوية التي تحكم ثنائية الإسلام والغرب، حيث لا يفتأ المثقف الغربي المؤدلج يؤكد أطروحة التواجد الأجنبي في بنية المجتمع، واستنساخ التدين المشرقي المنغلق والمتزمت في الغرب، ذاك الذي أضحى يخلق إشكالات اجتماعية وسياسية واقتصادية تؤثر على المكاسب الحضارية التي تم تحقيقها منذ فجر النهضة الأوروبية، والجامعة بين قيم المسيحية واليهودية من ناحية وبين القيم الليبرالية من ناحية ثانية، فمن منظور هذا التيار الرافض للإسلام، فالفلسفات الغربية المعاصرة: الليبرالية والعلمانية والحداثة والعولمة تتعارض بشكل مطلق مع ثقافة المهاجرين

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب ،ص: 23.

وعقائد،[1] مما أسهم في ترسيخ الثنائية المتضادة والمتعارضة: إسلام/ غرب متجاوزة بذلك قيم المجتمع الحداثي، الداعي إلى ترسيخ قيم المواطنة التي تردم أي شرخ بين الأصلي والأجنبي، وبين الغرب والشرق.

وبمجرد ما غدت هذه الأفكار الرجعية والتأويلات المضللة تروج إعلاميا وأيديولوجيا بنوع من التضخيم، تولدت مشاعر من الخوف لدى شريحة من الغربيين الأصليين تغذيها تصريحات بعض السياسيين، وتعززها تقارير بعض وسائل الإعلام المؤدلجة، والمرتكزة على الصور النمطية السلبية ومشكلات المسلمين، مع إغفال تام لإنجازاتهم وعطاءاتهم من ناحية أخرى.[2] وبناء عليه، فحتى لو تم التسليم جدلا بأن مشاعر الخوف من الإسلام صادقة لا متوهمة، فينبغي أيضا التسليم بأن ثمة خوفا مقابلا يكتسح نفوس المسلمين داخل الغرب وخارجه (غربوفوبيا).[3]

كما يشير المؤلف إلى أن الخوف المحتمل الذي يسببه المسلم يظل نسبيا، لأنه لا يتعلق إلا بفئة قليلة من المسلمين التي انحرفت تفكيرا وسلوكا عن سماحة الاسلام، إلا أن الخطاب الغربي المؤدلج يتجاهل هذه الحقيقة، ويسهم بدون هوادة في صناعة الخوف من الإسلام، وهو في منظور الباحث خوف رمزي مضخم لا وجود له إلا في المخيال الغربي، ويتكتم عن الخوف المضاد (الغربوفوبيا) الذي يعاني منه المسلم في العالم الغربي،[4] حيث يعيش تحديات من طينة مغايرة، تحديات تحاصر هويته الدينية والثقافية، فأضحى المسلم مسكونا بهاجس الخوف على هويته الأصلية من الذوبان وعلى مصير ذريته ومستقبلها المهدد بالضياع، لا سيما أمام تصاعد حملات العنصرية والتمييز العرقي والشعبوية الأيديولوجية بالرغم من أن المسلمين أصبحوا يشكلون جزءا لا يتجزأ من الوجود الغربي.

لذلك؛ فإن ظاهرة الخوف في التفسير الموضوعي تظل نسبية ومتبادلة، بخلاف التفسير الأيديولوجي الذي يقدمها بأنها مطلقة وأحادية تنطلق من الإسلام نحو الغرب.[5]

ثم تناول الباحث في الفصل الثاني قضية: جدلية التأويل والسياق، فعمد الى إثارة وتحليل جملة من المساءلات حول الخوف من الإسلام في بعديه التأويلي والسياقي، بين ما يعنيه مصطلح الإسلاموفوبيا من جهة، وكيف تنعكس تلك الدلالة على مرآة الواقع من

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، ص: 29-30.

(2) نفس المرجع، ص 31.

(3) نفس المرجع، ص 32.

(4) نفس المرجع، ص 32.

(5) نفس المرجع، ص 32.

جهة أخرى،[1] إذ سعى إلى بناء إطار مفاهيمي بالتقعيد لجملة من المصطلحات التأسيسية، التي تمُتّ بصلة وطيدة إلى مسألة الإسلاموفوبيا لاستيعاب حقيقة هذه الإشكالية التي ما انفكت تعمق الفجوة بين الدلالة والواقع،[2] وبين الذات والآخر، وبين الإسلام والغرب، ليتوصل إلى أن هناك ما يشبه الشرخ بين المعنى وتجليه الواقعي، فلمفهوم الإسلاموفوبيا تفسيران جوهريان يقفان على طرفي نقيض:

- أحدهما؛ يعني الخوف من خطر الإسلام والتخويف منه، كما يشاع بشكل كبير في وسائل الإعلام الغربية المؤدلجة، وفي الخطابات السياسية لأحزاب اليمين المتطرف.
- والثاني؛ يحدد الإسلاموفوبيا في التمييز المجحف والجائر ضد المسلمين، والسعي إلى تشويه صورة الإسلام في عيون الإنسان، والمجتمع الغربي.

إن التفسير الأول يختزل الإسلام في مصطلحات الخوف، والفوبيا، والتطرف، والتهديد، مما يحيل على أن العنصرية تجاه المسلمين لا تقتصر على السياق والواقع، بل تتجاوزه إلى التأويل، فتمارس أيضا على المستوى الفكري والرمزي.

وقد نبه المؤلف على أن هناك شبه إجماع داخل الدوائر الأكاديمية الغربية المنصفة على أن السلوكات المنحرفة التي تطال المجتمعات الإسلامية، هي نتيجة للتأويلات الخاطئة والمتطرفة للنصوص من قبل الإسلام الحرفي الذي يكتفي بظاهر النص الديني دون مراعاة روحه ومقاصده العميقة، ومن قبل الإسلام العنيف الداعشي الذي يلوي أعناق النصوص ويشحنها بأفكار وإيديولوجيات لا تمت إلى الدين بأي صلة، دون إغفال التيار الغربي المؤدلج الذي يتعامل مع النص الديني الإسلامي بشكل متحيز، وغير موضوعي . فهذه النماذج الثلاثة من شأنها أن تسهم في تحريف الكثير من حقائق الإسلام ومقاصده، ومن ثم تعميق الفجوة بين الدلالة والسياق، مما يترتب عنه ترسيخ مشاعر الخوف والتوجّس من الإسلام بالرغم من أنه بريء من هذه الادعاءات، إذ لا يمارس أي تخويف، بل هو من يتعرض لحملة تشويه شرسة، وعنصرية، رمزية، وواقعية.[3]

ويتمحور الفصل الثالث حول الجهل وما يتعلق به من عولمة الخوف من الآخر أو ما يطلق عليه بمصطلح (الاكسينوفوبيا)، فكل مجهول يمكن أن يشكل عدوا محتملا حسب

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، ص: 35.

(2) نفس المرجع، ص: 52.

(3) نفس المرجع، ص: 53.

تدوروف،[1] كما أنه لا يقتصر على طرف دون الآخر، فالجميع معرض لهذا الجهل، لذلك من غير المجدي أن يقول بعض المسلمين أن الغرب يجهل حقيقة الإسلام، أو يقول بعض الغربيين أن المسلمين يجهلون حقيقة الغرب، بل ينبغي الحديث عن الجهل المتبادل بين هذه الأطراف، ومن هذا المنطلق فالجهل المركب والمتبادل يسفر بلا شك عن خوف مركب ومتبادل أيضا، وهكذا فالصراع ينتعش في البيئة التي يحكمها الجهل بالذات، والواقع، والآخر، وهو ما ينطبق على علاقة الإسلام والغرب،[2] وبمجرد ما يتبدد هذا الجهل ينقلب الرفض قبولا، والخوف تقبلا.

ويناقش الفصل الرابع قضية الخوف من انتشار الإسلام، حيث يلاحظ أن إقبال الغربيين الأصليين على اعتناق الدين الإسلامي أصبح حقيقة ملموسة ومعيشة، فالإسلام أضحى أحد الأديان المهمة في المجتمع الغربي، الأمر الذي خلف خوفا غير مبرر لدى بعض الغربين يمكن تفسيره تارة بعامل الجهل المتبادل بين المسلمين وغير المسلمين، وتارة أخرى بتنظيرات الحركات الشعبوية المناوئة لما هو إسلامي، والتي لا تنفك تروج للقيم السلبية، والصور النمطية.

ويخلص الكاتب بعد ذلك في الفصل الخامس إلى أن ظاهرة دخول الغربيين الأصليين في الإسلام، تعد ملمحا من ملامح إعادة اكتشاف حقيقة الإسلام من قبل شريحة مهمة في المجتمع الغربي باعتباره يشكل لهذه الفئة تعويضا روحيا عن الفراغ الديني والنفسي بعد الانفكاك من جفاف العلمانية، والهداية لطريق الصفاء والروحانية، بتوفيقه ومزاوجته بين ما هو مادي وما هو روحي على نقيض الفلسفات الغربية المعاصرة .

## 4. صناعة الخوف ...من الإسلام

يروم الباحث التجاني بولعوالي من خلال القسم الثاني الموسوم بصناعة الخوف من الإسلام إلى تفكيك أطروحة (ظاهرة الإسلاموفوبيا وأنساقها) بغية الكشف عن الدور الخطير لوسائل الإعلام، وتفسيرات السياسيين، وأقلام الكتاب المؤدلجين في صناعة الإرهاب من الإسلام عبر مختلف الآليات كالتضليل، والتضخيم، والمزايدة.[3]

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، ص: 67.

(2) نفس المرجع، ص: 70.

(3) نفس المرجع، ص: 95.

يتطرق الباحث في الفصل الأول لمسألة اللاتسامح الديني بعرضه لرؤية الفيلسوفة الأمريكية مارتا نوسباوم[1] Martha Nussbaum الموضوعية حول إشكالية اللاتسامح الديني المعاصر تجاه الإسلام والمسلمين، فظاهرة الإسلاموفوبيا تعد صناعة رائجة اليوم في وسائل الإعلام، والمحافل السياسية، يتم توظيفها قصد التخويف من الإسلام، ووصفه بالعنيف الذي يشكل خطرا على المجتمعات الغربية، وفي هذا الصدد تقدم وتحلل الفيلسوفة نوسباوم مجموعة من نماذج اللاتسامح ضد الأقليات الدينية خصوصا الإسلامية منها وما يترتب عنها من تضييق على الحريات الفردية والجماعية باسم حماية مبادئ العلمانية، فتشير ضمن كتابها "اللاتسامح الديني الجديد المخرج من سياسة الخوف" إلى أن الخوف من الآخر والمجهول هو الدافع الجوهري، غير أنها تؤكد باستمرار أن أغلب حالات الإرهاب يتم تضخيمها، إذ تعملُ على كشف مزالقها الخادعة، فالذات لها أهمية جوهرية في صناعة الخوف من الآخر وتخيله وتجذيره في المجتمع والثقافة، ليصبح مكونا ثابتا في بنية التفكير، وغالبا ما يكون هذا المتخيل غير واقعي ومتوهم يتم النفخ فيه بمُوجِب الإعلام والسياسة على حساب قيم الحوار والتسامح.[2] فالمسلمون اليوم أضحوا ضحية للحرب الإعلامية التي تروجها الحركات المعادية للأجانب مما ترتب عنه إحياء جملة من الصور النمطية القديمة وإنتاج صور سلبية جديدة، وهو ما جعل المفكرة نوسباوم تعقد مقارنة بين الأقلية اليهودية في أوروبا إلى حدود ما بعد الحرب العالمية الثانية وبين مسلمي اليوم في المجتمعات الغربية،[3] فتوصلت إلى أن التاريخ يعيد نفسه، فهناك تشابه كبير بين المسلمين حديثا وبين ما كان يمارس قديما على الأقليات اليهودية في أوروبا، فإرهاب الإسلام ليس سوى تحول استعماري متأخر لإرهاب اليهود، واستنساخ مشابه نوعا ما لمعاداة السامية.

ونظرا لما للإعلام من دور مهم في صناعة ظاهرة الإسلاموفوبيا نبه الكاتب في الفصل الثاني على أن قسما كبيرا من الإعلام الغربي ينهج خطابا مضللا بخصوص قضايا الإسلام والمسلمين في الغرب، ويخصص حيزا كبيرا لمشاكل ومساوئ المسلمين لتضليل الرأي العام

(1) مارتا نوسباوم Martha Nussbaum من مواليد 6 مايو لعام 1947، فيلسوفة أمريكية وباحِثة قانونية، من أكثر الفلاسفة الأخلاقيين تأثيرًا في العالم، معروفة بأبحاثِها واسعة النطاق في مجال الفلسفة اليونانية والرومانية القديمة، وعلم النفس الأخلاقي والأخلاقيات . وأسهمت بشكل كبير في المناقشات المعاصرة حول ما يخص حقوق الإنسان وحقوق المرأة، وحقوق الحيوان، ودعمت الكثير من المجالات الأخرى، حيث نشرت مواضيعًا تخص المأساة والضعف والتسامح الديني.وصنفت نوسباوم بالفيلسوفة الأمريكية الأنثى الأكثر شهرة في العصر الحديث.

(2) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب ،ص 99-100.

(3) نفس المرجع، ص 101.

الغربي، ولتمرير رسائل أيديولوجية مغرضة، تسهم في تحريف الحقائق، وفي نشر صور مغلوطة ومبالغ فيها حول المسلمين، كما لا يلتفت إلى الجوانب الإيجابية التي يحققونها، ومن شأن هذه الازدواجية الإعلامية أن توسع الفجوة بين الأصليين والمسلمين فيسود الانغلاق في المعاملة، والقطيعة في التواصل، وإطلاق الأحكام النمطية من كلا الجانبين مما يعمق الصراع الحضاري والصدام الثقافي بين الشرق والغرب، ويرسخ استمرار الخوف مما هو إسلامي لدى عامة المجتمع الغرب.[1]

ويعالج الباحث في الفصلين الثالث والرابع أنموذجين واقعيين من خلال السياق الهولندي، وهما: ظاهرة الهجرة السرية، ومسألة الإرهاب، حيث يبدو أن قسما كبيرا من الإعلام الغربي مؤدلج إلى أبعد الحدود، وغالبا ما يشكل أداة طيعة في يد الحركات المناوئة لما هو أجنبي، مما يجعل خطابه يفتقر إلى الموضوعية، والحياد، والشفافية، لا سيما في تناول قضايا المسلمين والأجانب.[2]

ولا يختلف هذا كثيرا عن مواقف أحزاب اليمين المتطرفة التي خصص لها الباحث الفصل الخامس، حيث يرى أن الاستيعاب الأمثل لظاهرة الإسلاموفوبيا لن يتأتى إلا عن طريق دراسة الحركات اليمينية المتشددة، والإحاطة بتاريخها وأفكارها ومعتقداتها، ومعرفة تياراتها السياسية والأيديولوجية التي هي في الحقيقة بمثابة وحدات لصناعة الصور النمطية حول الإسلام والمسلمين، وهذا ينطبق على السياق الأوروبي حيث تنشط العشرات من أحزاب وحركات اليمين المتطرف مع التركيز على» تجربة اليميني الهولندي المتطرف خيرت فيلدرز[3] Geert Wilders، عبر تحليل بعض أفكاره المتعلقة بجملة من القضايا الإسلامية، ثم تقويضها بالدليل الدامغ والحجة الساطعة»،[4] بدون إغفال للسياقات الأوروبية والغربية التي لا تكاد تخلو من أحزاب وحركات تعادي الأجانب بوجه عام والمسلمين بوجه خاص،

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، ص: 114-115.

(2) نفس المرجع، ص: 95.

(3) خيرت فيلدرز Geert Wilders سياسي هولندي شعبوي، ولد يوم 6 سبتمبر 1963 في مدينة فنلو بمحافظة ليمبورغ جنوب شرقي هولندا لعائلة كاثوليكية، يرأس حزبا قوميا ينتمي إلى اليمين المتطرف هو حزب من أجل الحرية، الذي يعد ثاني أكبر حزب تحت قبة البرلمان الهولندي.ويعد فيلدرز الذي يعيش تحت حراسة مشددة توفرها الشرطة الهولندية، شخصية مثيرة للجدل تتباهى بأنها تخوض حربا ضد الهجرة وما يسميه «أسلمة هولندا»، وقد تعرض للمحاكمة أكثر من مرة بتهم التحريض والتمييز ضد جماعات عرقية ودينية.

(4) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب ،ص: 96.

ليخلص إلى أن الإسلام بات يشكل الهاجس المشترك بين شتى مكونات اليمين الأوروبي المتطرف؛ ليس لأنه يمارس خطرا عليها،[1] بل لأنه مختلف عنها، ويحمل هوية لا تمت بصلة لقيمها وعاداتها وتقاليدها، «فتيار اليمين المتطرف يعمل على صناعة إسلام مغاير للإسلام الواقعي لا يوجد إلا في المخيال الغربي».[2]

ليختتم الباحث القسم الثاني بمعالجة موضوع الإسلام السياسي حيث يكشفُ عن جانب من العوامل التي تغذي توجسات ومخاوف الغرب من الإسلام، فبعض تصريحات تيارات الإسلام السياسي المعادية للآخر باسم الإسلام حتى وإن كانت أغلبها تحمل مغالطات فهي لا تمت بصلة لحقيقة الإسلام، ورسالته السمحة، بل من شأنها أن تؤدي إلى تشويه صورته، «فتيار الإسلام العنيف الذي يدعو علانية إلى الإرهاب وقتال غير المسلمين تحت ذرائع مختلفة كالقاعدة وداعش وبوكو حرام... أسهم في نشوء ظاهرة الإسلاموفوبيا وترسيخها خاصة بعد العمليات المسلحة الميدانية التي نفذها هذا الفصيل المتشدد في بعض الدول الغربية»،[3] غير أن هذه العمليات المحدودة والنادرة لا يجب أن تختزل الإسلام في الغرب في عباءة الإسلام السياسي الحركي العنيف، فالخوف المترتب عنه يظل في الواقع نسبيا، إلا أن وسائل الإعلام تضخمه وتسهم في تهويله من منطلق الدعاية الأيديولوجية ثم تسقطه على الدين الإسلامي ككل، متغافلة أن الخوف القادم ليس من الإسلام، ولكن من الإسلام المضاد الذي يشكل خطرا على الإسلام نفسه.

## 5. تبديد الخوف من الإسلام

يعمد الباحث في القسم الثالث من مؤلفه إلى معالجة مسألة تبديد الخوف من الإسلام بغرض تصحيح الأحكام التنميطية، وتغيير الأفكار العدائية عن الإسلام والمسلمين، من خلال تقديمه لجملة من الآليات التي تنتمي إلى حقول معرفية متعددة: فلسفية، واجتماعية، واقتصادية، وإعلامية.

فيتناول في فصله الأول المنظور الفلسفي بعرضه لمقاربتين معاصرتين لفيلسوفين اتسم خطابهما حول الإسلام بالموضوعية والتجرد العلمي، وهما:[4]

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، ص: 158.

(2) نفس المرجع ،ص: 163.

(3) نفس المرجع، ص: 169.

(4) نفس المرجع، ص: 177.

- الأولى: تهم رؤية الفيلسوف الفرنسي تزفيتان تودوروف[1] Tzvetan Todorov من خلال كتابه "الخوف من البرابرة / من وراء صراع الحضارات".
- والثانية: تستعرض تجربة الفيلسوفة الأمريكية مارتا نوسباوم Martha Nussbaum من خلال مناقشة كتابها "سياسة اللاتسامح الديني".

ويخلص الباحث إلى أن المفكر تزفيتان تودروف يشكك عبر فصول مؤلفه في العديد من المفاهيم والمسلمات المتداولة في السياسة والإعلام، وينتقد بشكل موضوعي ظاهرة الإسلاموفوبيا، ويرفض ربط الإسلام بالإرهاب ووصمه بدين بربري وخطر أخضر يهدد المجتمعات الغربية المتحضرة، كما يروج لذلك صناع وداعمو نظرية صراع الحضارات،[2] أمثال: صامويل هنتنغتون[3] Samuel Huntington وبرنارد لويس Bernard Lewis [4] وأريانا

(1) تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov مفكر فرنسي من أصل بلغاري،ولد في 1 مارس 1939 بالعاصمة البلغارية صوفيا. وعمل رئيسا شرفيا للمركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي، ودرّس بعدة جامعات أميركية. يعد تودروف من أبرز دعاة الحوار بين الحضارات مؤكدا أن ما يجمع الإنسانية أكثر بكثير مما يفرقها، عارض نظرية صدام الحضارات وانتقد أسسها الفكرية، وندد بالرسوم التي أساءت لشخص الرسول محمد ﷺ. كما عارض التدخلات الأجنبية بدول أخرى مؤكدا أنها «تحفز الإرهاب»؛ توفي عام 2017 ولم تحظ وفاته بتغطية إعلامية في الغرب تناسب حجمه الفكري.

(2) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب ،ص: 181.

(3) صامويل فيليبس هنتنجتون: Samuel Phillips Huntington ولد في 18 أبريل 1927 في مدينة نيويورك، وهو عالم وسياسي أميركي، وبروفسور في جامعة هارفارد لـ 58 عاماً. تصفه جامعة هارفارد باحد أكثر علماء السياسة تأثيراً في النصف الثاني من القرن العشرين. اشتهر مع أطروحته «صراع الحضارات، «والتي وسعها لاحقًا إلى كتاب «صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي». والتي جادل فيها بأن صراعات ما بعد الحرب الباردة لن تكون متمحورة حول خلاف آيديولوجيات بين الدول القومية بل بسبب الاختلاف الثقافي والديني بين الحضارات الكبرى في العالم . توفي في 24 ديسمبر 2008 بجزيرة مارثاز فينيارد بولاية ماساشوسيتش الأميركية، عن عمر ناهز الـ 81 عاماً.

(4) برنارد لويس Bernard Lewis: ولد في لندن عام 1916 من أسرة يهودية إنكليزية، وتوفي في عام 2018، وهو مؤرخ ومستشرق أمريكي بريطاني . وأستاذ فخري في جامعة برنستون، تتمحور أغلب كتاباته حول الإسلام والشرق الأوسط وكذا المجتمعات الإسلامية وعلاقاتها بالغرب، وقد نشر أكثر من 30 مؤلفا ومئات المقالات والمحاضرات بأكثر من 10 لغات، معظمها عن خطوط ومعالم الشرق الأوسط الجديد.

فالاتشي Oriana Fallaci[1]... فيؤكد تودورف أن الحضارة الغربية الاستعلائية لا تخلو من صفات البربرية والوحشية[2] بسعيها إلى خلق تماثل ثقافي، عن طريق إقصاء الكيانات الثقافية الأخرى، وإرغامها على الذوبان قسرا لا طواعية في الحضارة النرجسية الغربية تحت ذريعة تفوق العرق الأبيض ونبوغه، مما يشكل عائقا في وجه التعارف الثقافي، والتواصل الحضاري .

وتأسيسا على ما سبق، فالسلوكات العدائية والممارسات العنصرية متجذرة في العقلية الغربية الاستعمارية، وهو ما يؤكده الدكتور بولعوالي في مستهل فصله الثاني من القسم الثالث بإشارته إلى أن» الإسلاموفوبيا تعد شكلا حديثا للعنصرية المعادية للإسلام والمسلمين، الأمر الذي سيخلف عواقب وخيمة ستهدد أمن أجيال اليوم والغد وسلمها، ثم بعد ذلك سلط الضوء على المغذيات والأسباب التي تسهم في تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا واستفحال الممارسات المتحيزة ضد المسلمين في المجتمعات الغربية ليخلص إلى أن تلك السلوكات العنصرية العدائية نتج عنها تنامي ظاهرة الانعزال عن المجتمع «[3]لاسيما لدى فئة الشباب المسلم الرافضة لخطر الانصهار والذوبان في المجتمعات الغربية حفاظا على خصوصياتها الثقافية، وهويتها الدينية الإسلامية، الأمر الذي ينعكس سلبا على تحقيق الاندماج الحقيقي، وترسيخ المواطنة البناءة، ويهدد التماسك الاجتماعي الذي تراهن على إقراره السياسات الأوروبية والغربية، ومن أجل التصدي لظواهر مثل العنصرية والتمييز العرقي واللاتسامح الديني .

ويختتم الباحث فصله بتقديم جملة من الآليات العملية والواقعية التي من شأنها على الأقل التخفيف من التداعيات العنصرية، والأفكار التنميطية من قبيل:[4]

(1) أوريانا فالاتشي: OrianaFallaci ولدت 29 يونيو 1929 في فلورنسا، وتوفيت 15 سبتمبر 2006، هي صحفية وكاتبة مقالات، مؤلفة ومحاورة سياسية إيطالية، أثارت مؤلفاتها وسلاسل مقالاتها، بعد أحداث الحادي عشرمن سبتمبر 2001، جدلا واسعا بسبب انتقاداتها اللاذعة، ومواقفها المعادية للإسلام بلغت حد اتهامها بالعنصرية الدينية، حيث كتبت العديد من الروايات التي تسخر فيها من المسلمين، ووصفت الأئمة بكونهم المرشدين الروحيين للإرهاب . وصارت رمزا لليمين المتطرف في إيطاليا وللحركات الأوربية اليمينية المعادية للإسلام بشكل عام.

(2) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، ص: 180.

(3) نفس المرجع، ص: 176.

(4) نفس المرجع، ص: 195.

- المتابعة الإعلامية والقانونية لما ينشر من مواد وتصريحات، تنطوي على إساءات عنصرية للاسلام والمسلمين.
- الملاحقة القضائية للإسلاموفوبيين، لمكافحة التمييز العنصري، والتعصب العرقي، واللاتسامح الديني ضد المسلمين .
- القيام بحملات توعية لزرع الوعي لدى المسلمين بخطورة هذه الظاهرة، وبضرورة التعامل معها بجدية تامة وعدم اعتبارها قضية هامشية.
- تشكيل جبهة موحدة من مثقفين أوروبيين، مسلمين وغير مسلمين، لمدارسة آليات مواجهة حملات العنصرية والإسلاموفوبيا التي تلحق المسلمين في الغرب.

ويتحدث في الفصل الثالث على البعد الاقتصادي، فيبحث في العلاقة التي تربط ظاهرة الإسلاموفوبيا بالأزمة الاقتصادية، وفي حقيقة ما إذا كان المسلمون يشكلون عبئا اقتصاديا على المجتمعات الأوروبية المضيفة، كما تروج لذلك الخطابات السياسية والإعلامية الرافضة لكل ما هو إسلامي، كما يكشف عن «ازدواجية الخطاب الغربي إزاء الأجانب بالترحيب بهم في زمن الانتعاش والرخاء، وبرفض تواجدهم عند الانكماش الاقتصادي، فتصبح الأقليات المهاجرة معرقلة للاقتصاد ومسؤولة عن الأزمة الراهنة التي يمر منها الغرب».[1]

ويختتم الفصل بتقديم آليات من شأنها تصحيح ومعالجة المغالطات التنميطية الاقتصادية وإنصاف المسلمين الذين لا يمكن إنكار إسهاماتهم الإيجابية في بناء اقتصاديات البلدان التي استقروا بها واستوطنوها، ومن تلك البدائل التي يتحتم أن تؤخذ بعين الاعتبار:[2]

- حاجة أوروبا والغرب الملحة والمتزايدة إلى اليد العاملة، والكفاءات العلمية الأجنبية والمسلمة.
- نشر الوعي الاقتصادي بين المسلمين في البلدان الغربية، وتشجعيهم على الانخراط البناء في مختلف الأنشطة الاقتصادية .
- عولمة الإنسان والمعرفة: استقدام شباب الدول النامية إلى البلدان الغربية والأوروبية، والحرص على تلقيهم لتكوينات تعزز خبراتهم وتجاربهم، قصد استثمارها في النهوض ببلدانهم الأصلية.

(1) الخوف المتبادل بين الإسلام والغرب، ص: 203 .

(2) نفس المرجع، ص: 208.

- تشجيع الأجيال الصاعدة المسلمة في المجتمعات الغربية على متابعة التحصيل العلمي في التخصصات الحيوية، لخلق طاقات وكفاءات واعدة في جل المجالات والميادين.

وفي الفصل الأخير من هذا القسم الثالث، تناول الباحث مسألة المواطنة لما لها من دور فعال في توحيد مختلف شرائح المجتمع ومكوناته، وباعتبارها قيمة ناجعة لتبديد الخوف من الآخر، خاصة بعد نشوء ظواهر غير متوقعة كالهجرة والتعددية والعولمة والعنصرية... وتطرق إلى أن المواطنة كلما شكلت إطارا أخلاقيا منظما لعلاقات الناس فيما بينهم على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم تبددت غمائم الخوف، وتلاشى القلق الوجودي بين الذات والآخر، وتم تحصين التماسك الاجتماعي، ومجابهة الانغلاق الاجتماعي.

## خاتمة:

وجماعُ الأمر، فقد استطاع الباحث التجاني بولعوالي في مؤلفه هذا، أن يوظف المقاربتين التأصيلية والتفكيكية بكيفية متناسقة، وأن يجمع بينهما بصورة تركيبية شمولية، بغية تعزيز رؤيته المتعمقة حول موضوع الخوف، معتمدا في ذلك أطروحة مؤيدة لرؤى ثلة من الباحثين الموضوعيين المهتمين بدراسة علاقة الغرب بالإسلام، عمد من خلالها إلى تبني موقف مغاير لصناع ودعاة نظرية صدام الحضارات، وإقرار رؤية بديلة ترى أن الخوف ظاهرة متبادلة ومشتركة بين الغرب والإسلام، وأنه ليس مستبعدا أن يكون متوهما لا وجود له إلا في المخيال الشعبي الغربي، بغرض تكسير الرؤى الفكرية التنميطية التي تصور الإسلام صانعا ومصدرا للخوف والإرهاب، والغرب الخائف والمرهوب.

كما أشار إلى أن وصف خوف الغرب من الإسلام بالمتوهم والمزيف، لا يعني إنكار كينونة هذا الشعور، بل التشكيك في الحجم المضخم الذي تقدم به هذه الظاهرة، إلا أن توظيفه لتعابير من قبيل: (خوف متوهم) و(خوف مزيف) و(خوف صوري)، خلق نوعا من التشويش الفكري لثلة من الباحثين والمهتمين بقضية ظاهرة الإسلاموفوبيا، نظرا لما يشهده الواقع في العقود الأخيرة من تنامي النزعة التطرفية الأصولية في المجتمعات الإسلامية والغربية على حد سواء، ومن انتشار خطاب الكراهية والتمييز العنصري واللاتسامح الديني ضد الأقليات المسلمة، وكان الأجدر بالباحث الاقتصار في دراسته العلمية على تعابير الخوف المتبادل والخوف النسبي باعتبار ظاهرة الخوف أضحت واقعا ملموسا؛ وإن كان أحيانا يتم تضخيم حجمها من قبل الإعلام المؤدلج وأحزاب اليمين المتطرف.

والكتاب يتمتع بالعمق في التحليل، ويعدّ إضافة علمية نوعية لمحاولته الإحاطة بمختلف أبعاد القضية ومستوياتها سياسيا، وإعلاميا، وثقافيا، واجتماعيا وحتى اقتصاديا، كما استفاد الباحث من إحاطته الواسعة والدقيقة بواقع المجتمعات الغربية، ومن اشتغاله الأكاديمي الجامعي في أوروبا، وعضد دراسته بتصورات وقناعات فلاسفة ومفكرين غربيين موضوعيين ذائعي الصيت في الدوائر الإعلامية والسياسية وفي الأوساط الأكاديمية، مما يجعله يتصف بالحيادية الفكرية ويلتزم بالمنهج العلمي في تناوله للقضية المحورية. وتبقى مثل هذه الدراسات كفيلة بتحقيق توازن مُلِحٍّ في ظل الكتابات المعاصرة التي تنشطر إلى مغرضة ومحايدة، وإن كان الصنف الثاني قليلا نسبيا.